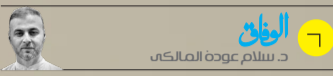


هرمز مقابل جنوب لبنان.. هندسة الردع الإيرانية التي أطبقت على واشنطن



في الشرق الأوسط الإيراني الجديد لم تُعدّ المعارك تُحسم بعدد الصواريخ، إنما بعدد البراميل التي تمر عبر مضيق هرمز. إنّ الولايات المتحدة تواجه أزمة استراتيجية غير مسبوقه؛ حليفها الإسرائيلي يضغط نحو التصعيد، وخصمها الإيراني يردّ بربط أمن الجنوب اللبناني بأمن الملاحة العالمية. وفجأة، تحول وقف إطلاق النار في لبنان من ملف إقليمي إلى شرط لاستمرار تدفق النفط للعالم. في قلب هذه المعادلة، تجد واشنطن نفسها بين مطرقة التزامها لإسرائيل وسندان المصالح الحيوية العالمية.

ولم يعد المشهد مجرد حليف متمرد أو خصم إقليمي بلوح بالقوة، بل شبكة ردع بالغة التعقيد نسجتها طهران؛ طرفها الأول جبهة الجنوب اللبناني، وطرفها الآخر مضيق هرمز، وبينهما تقف الولايات المتحدة محاصرة بقواعد لعبة لم تعد تملك وحدها سلطة تقريرها. إنّ الإدارة الأمريكية تواجه اليوم مأزقاً مزدوجاً؛ على جبهتها الأولى، حليف إسرائيلي يتحرك بمنطق «الأرض

المحرقة» حتى لو خيّرت تفاهات واشنطن مع طهران. وكل جولة تصعيد تطلقها تل أبيب تستنزف من رصيد الهيبية الأمريكية وتظهرها عاجزة عن ضبط سلوك أقرب شركائها. أمّا الجبهة الثانية، فهي طهران التي تركت منطق الدفاع التقليدي، وانتقلت إلى «ردع متناظر»؛ معادلته بسيطة وقاسية في آن معاً، أمن الضاحية الجنوبية لبيروت مقابل أمن شمال فلسطين المحتلة، والعبور الآمن في مضيق هرمز في مقابل أمن العاصمة الأمريكية، إذ إن أي خرق إسرائيلي في لبنان لن تُجيب عنه المقاومة وحدها، بل ستُحمل واشنطن كلفته مباشرة عبر التلويح بإغلاق الشريان التجاري للطاقة العالمية. في المقابل، تقف دول الخليج الفارسي «قلب صناعة الطاقة» في منطقة رمادية، وفي الوقت نفسه رأت واشنطن تبحث عن تفاهم مع إيران لتجنب الأسوأ. فكانت النتيجة استراتيجية «تحوط» واضحة: الابتعاد عن التصعيد، ودعم الوساطات القطرية والباكستانية، والتفاهم المباشر مع طهران لضمان بقاء مضيق هرمز مفتوحاً. أمّا لبنان، فيبقى مركز الثقل. تحاول بيروت الرسمية تثبيت هدنة عبر الوساطة الأمريكية؛ لكن حزب الله يرفض

أي نزع للسلاح تحت النار، ويربط مصير جبهته الجنوبية بمسار التفاوض الإقليمي الأوسع. وهكذا تحول الجنوب اللبناني من جبهة عسكرية إلى ورقة ضغط جيوسياسية تتحكم في مصير الملاحة الدولية. أمام هذا الاستعصاء، تقف واشنطن أمام ثلاثة مسارات، هي:

المسار الأوّل: كبح الحليف بالقوّة

هذا المسار هو الأقرب إلى الواقع، وهو يتطلب ضغط أمريكي غير مسبوق على إسرائيل لفرض وقف إطلاق نار شامل في لبنان، واستخدام ورقة الدعم العسكري كورقة مساومة. ونجاح هذا المسار يعني إنقاذ محادثات «بورغنستوك» السويسرية، وتجاوز مهلة الـ٦٠ يوماً باتفاق دائم يبقّي هرمز مفتوحاً.

المسار الثاني: أمن إقليمي مشترك

خيار بعيد المدى، يقوم على تحويل حماية الممرات البحرية من عبء أمريكي فردي إلى التزام جماعي يضم الخليج الفارسي وإيران وتركيا وباكستان، وثمنه اعتراف أمريكي ضمني بالنفوذ الإيراني، ومقابله إنهاء لغة «العقاب الفوري».

لقد أُتيت طهران أنها لم تعد مجرد خصم إقليمي، إنما ند استراتيجي يصيب شروط اللعبة، وأن زمن فرض الإرادة بالترسانة العسكرية وحدها قد ولى إلى غير رجعة

المسار الثالث: الحرب الاقتصادية

وهو الأسوأ حيث يؤدي فشل أمريكا في ضبط إسرائيل إلى إغلاق إيراني فعلي لمضيق هرمز، فيتبعه تدخل أمريكي عسكري لكسره. والنتيجة ليست معركة بحرية فحسب، بل انهيار سلاسل الإمداد، وصدمة طاقة عالمية، وعودة الجميع إلى طاولة المفاوضات من موقع أضعف بكثير.

الخلاصة: نهاية زمن الإملاءات

الشواهد الميدانية لا تكذب، فإيران نجحت في نقل الصراع من تلال الجنوب إلى عمق الاقتصاد الغربي، ووضعت «تفاهم إسلام آباد» على حافة الانهيار. وفي الداخل الأمريكي، يتصارع تياران؛ صقور يطالبون بكسر

يبدو أن ثقافة الشهادة كانت راسخة في عائلتكم، كيف ترسّخت فيكم؟

أرى أن النظر إلى الشهادة ك«فن» لا ينتقل بالكلام فقط، بل بالفعل. نحن مدينون كثيراً لجلسات الأخلاق عند المرحوم الحاج السيد مجتبي طهراني. كان يقول إن الأخلاق تُمارس ولا تُقال فقط. هذه الأخلاق كانت نمط حياة أبي وأمي، وقد جرت في حياتنا. منذ ولادتي كبرت في مجالسه في شهر محرم والأيام الفاطمية، وبقينا نستفيد منه حتى عام ٢٠١٢.

أذكر أيضاً أنه حين استُشهد القائد نيلفروشان مع السيد حسن نصر الله، بحكم صلة القرابة، كان بيننا يعيش حالة خاصة. في إحدى الليالي كنتُ ذاهبين إلى بيت السيد نيلفروشان لتعزية العائلة، فقلت لأبي إن السنة الدراسية بدأت وإن أبي مشغول جداً، لكنهما قالت إنهما سيأتيان. وفعلاً، وصلا قبلنا رغم بُعد الطريق. رأيت في عيونهما غبطة حقيقية لمن بلغ ذلك المقام. التوكل على الله كان خلقاً دائماً في حياتهما. كثيراً ما كنت أسمع أبي يقول بنبات: «توكلنا على الله». ولم يكن ذلك كلاماً على اللسان، بل كان شيئاً يخرج من القلب.

هل كان له توسل خاص في أعماله؟

كانت له علاقة قلبية خاصة بالإمام الرضا^(ع)، وكان من خدامه. حين تتعدد الأمور، يتوسل الإنسان بالإمام الرضا^(ع) أو يزور مدينة مشهد المقدسة. هذه الجهة من الحياة كانت واضحة جداً في حياة أبي.

أثافي مجالس الإمام الحسين^(ع)، فلم يكن يتصنع أبداً. كان يحب المجالس التقليدية والبسيطة، حيث يستطيع أن يبكي بلا قيود. روى أخي أنه ذهب معه مرة إلى مدينة قديمة في شارع ري (جنوب العاصمة)، وبعد العزاء قال أبي بارتياح: «ما أجمل أن يكون الإنسان في مكان لا يعرفه فيه أحد فيرتاح»؛ ولم يكذبني كلامه حتى اقترب أحد طلاب جامعة آزاد وشكره على قرار يتعلق بالأربعين. عندها أنزل أبي رأسه وكأنه أدرك أنه حتى هناك لا يستطيع أن يبقى مجهولاً؛ لكن العزاء كان بالنسبة له هو المكسب الحقيقي.

كيف كان يتعامل مع المشكلات؟

المشكلات كانت تزججه طبعاً؛ لكنه كان يمنح

نفسه فرصة للتأمل والصبر، ثم يراجع الطريق والهدف. لم يكن يتراجع بسهولة. كان جريئاً في الدخول إلى عمق العمل، ولم يكن محافظاً بالمعنى الذي يمتنع من المبادرة.

ما أكبر درس أخلاقي أخذته منه؟

درسان أساسيان: الأول ألا أكون أحادية البُعد في الحياة؛ أن أرى البُعد الروحي، والجسدي، والأخلاقي، والعائلي، وأحاول إقامة التوازن بينهما. والثاني هو الارتباط بالله والقرآن. أتي كنت تحفظ أجزاء من القرآن وتعمل في المجال القرآني، وأبي كان كثير التدبر والتلاوة. هذا بالنسبة إليّ درس كبير.

كيف كانت والدتكم تتحمل قيود الحماية والغياب؟

أُتي لم تكن تنهار. كانت تحاول أن تحمل العبء بنفسها، حتى في الأمور البسيطة مثل الشراء أو شؤون البيت؛ لكنها لم تكن تسمي ذلك «تحملاً». قبل أسبوعين من شهادتها، قالت لي في حديث أمّ وابتها: «لا تتحملي في الحياة، التحمل فيجب، اصبري. إذا صبرت صار كل شيء جميلاً، لأنك حين ترين أنك في الطريق والهدف، تصبح المشقة حلوة».

كانت تعيش هذا فعلاً. إذا ثقلت على مشاغل الأولاد، كنت أتصل بها لأتذمر قليلاً، فتعبدني إلى الهدوء وإلى الله الذي يرى ويعلم. كانت تقول: «إذا خدمت أولادك فلا تمني عليهم، قولي إنهم من شيعه أمير المؤمنين^(ع)، والله شاهد على هذه الخطوة».

مالذي كانت تقدّمه لوالدك في حياته؟

لم تكن المسألة عملاً محددًا، بل كان وجودها مؤثراً. أحياناً يُعرّف قدر المرأة خطأ بالشهادة الجامعية أو العمل الخارجي فقط؛ لكن أُمّي لم تكن أسيرة لهذه التعريفات. لم تكن تحمل شهادة جامعية؛ لكنها كانت تعمل في البيت بالقرآن، وقراءةً وحفظاً، وكانت منتبهة لدورها زوجةً وأمًّا ووجهةً.

محبّتها اللامحدودة كانت، في رأبي، القوة المحرّكة لأبي. كانت تجمع العائلة، تحافظ على صلة الرحم، وتدبر العلاقات العاطفية بين الأقارب. في العربية يقال عن بعض الناس

إنهم «مُنْفَس الكرب»، أي إن وجودهم نفسه يبعث الراحة فيمن حولهم. أبي وأُمّي كانا كذلك في العائلتين.

هل كانت تخشى أن يستشهد والدك وتبقي وحدها؟

نعم. كانت تقول ذلك، ربما لهذا كانت تحاول دائماً أن تكون معه. كان لديها قلق من أن تفوتها القافلة. في السنوات التي كانت فيها خادمة في حرم السيدة معصومة^(س)، كانت تقول إنها تدعو كثيراً لهذا الأمر. وبعد شهادة الشهيدة معصومة كرياسي في لبنان مع زوجها، تأثرت أُمّي كثيراً، وقالت مع نفسها: «إذن يمكن أن أستشهد مع زوجي أيضاً».

كانت تراجع حياتها وكأن لديها قائمة داخلية: هل أعيش مثل الشهداء؟ ماذا فعلوا؟ ماذا قصّرت فيه؟ هذا لا يحدث فجأة؛ لابد أن وراءه حساباً ومراقبة.

هل كان والدك يشارك والدتك في القرارات؟

نعم، كان هناك تشاور بالتأكيد؛ لكن أُمّي كانت ترى كلام أبي حجة أخيرة. إذا اردت شيئاً وسأته فقال إن الوقت غير مناسب، لا تدخل في البحث عن الأسباب، بل تقول: «إذن ليس فيه صلاح، ولا أفعله». كانت تتفق به تماماً.

هل كانا يتحدثان عن الشهادة معاً؟

أرى أن هذا طريق اختاره معاً. حياة أبي وأُمّي تشبه قطعة تركيب مكتملة؛ كانا يكملان بعضهما، ولذلك جاء مصيرهما النهائي معاً. كانا مطمئنين إلى أننا نحن الأولاد وصلنا إلى مرحلة من الاستقرار، ولم بعد أحد منا طفلاً متعلقاً بالبيت. كانت أُمّي تقول في الفترة الأخيرة إن جدّتها توفيت في التاسعة والخمسين، ووجد أبي توفي في التاسعة والخمسين، ثم تقول: «أنا ووالدكم نعيش وكأننا أكثر من المدة». كانت في السابعة والخمسين حين استُشهدت، وكان أبي في التاسعة والخمسين قبل بلوغه الستين. وكانت قد ضاعفت درس حفظ القرآن لأنها كانت تقول إنها لا تريد أن تلقى الله وهي مدينة للقرآن. كما نُقل بعد شهادتها أنها رأت قبل ثلاثة أشهر، في شهر رمضان، الحاج قاسم سليمان في المنام، فأعطاهاست أقراص من التربة؛ إنثنين لها وأُبي،

وأربعة لمراقبيهما. وفي ليلة الحادثة استُشهد أربعة من الحماية. نحن الأبناء لم تكن نعلم بهذا المنام؛ لكن بعض من حول أبي كانوا يعرفونه.

هل كانت هناك علامات قبل الشهادة؟

من جهة أُمّي؛ لا؛ كانت منشغلة بالحياة اليومية ولا تظهر قلقها. أمّا من جهة أبي، فقد شعرنا بشيء. أتذكر ليلة الأربعاء قبل الحادثة جيداً. كنتُ اجتمع عادة في نهاية الأسبوع، وأُمّي دعتنا للعشاء ودّعت عتيّ لأنه كان وحيداً، حيث كانت زوجته في مدينة مشهد للزيارة. ورغم ألم ركبتيها وخدمتها ذلك الأسبوع في قم المقدسة، قالت إنها ستعد طعاماً بسيطاً لتجتمع.

في تلك الليلة شعرنا بقلق أبي بسبب أوضاع المنطقة. كان يقول إن الكيان الصهيوني قد يهاجم في أي لحظة؛ لكننا كنتُ ننظر إلى الأمر ببساطة ونقول إن ذلك مستحيل، وربما تكون هناك عمليات تخريب داخلية فقط. كنتُ نرى القلق في وجهها؛ وكان يظهر عنده بالصمت والتأمل. أذكر أن أختي أخذت جهازه اللوحي وبدأت تقرأ الأخبار بصوت عالٍ، فلما وصلت إلى أخبار عن احتمال الهجوم، قال لها: «تركيزه يا ابنتي، ليس كل شيء يُقرأ بصوت عالٍ». كان واضحاً أن ذهنه مشغول. ليلة الحادثة كنتُ خارج طهران. قرابة الثالثة فجراً استيقظت على صوت اضطراب في الهواء واهتزاز الأرض. لم تكن وكالات الأنباء قد نشرت شيئاً. وبعد أن راجع زوجي الأخبار قال إن الكيان الصهيوني هاجم، أول مقطع رأيته كان لحريق بيت والدي؛ لكن كُتب تحته «منطقة الشهيد محلّاتي». عرفت المبني من ألوانه؛ لكنني رفضت التصديق. ثم ذكر شارع فرحزاد، ففهمت.

قلت مع نفسي ربما لم يكن أبي في البيت، لأنه لو شعر بالخطر لما بقي هناك. هاتف أُمّي كان يرنّ لأنه فُذف إلى الخارج، أما هاتف أبي فلم يكن متاحاً. اتصلت بأُمّي وطلبت منه أن يذهب ليرى هل السيارات في المرآب. فريق الحماية لم يكن يجيب لأنهم استُشهدوا أيضاً. ذهب أُمّي وواجه المشهد، ثم عدت أنا إلى طهران.

عندما وصلت وشغّلت التلفاز، بدأت الأسماء تظهر واحداً بعد آخر. كان الحزن يتقاسمنا باستمرار. ما شهدناه في تلك الأيام الإثني عشر

وتشيع الشهداء كان استثنائياً. هؤلاء الشهداء استُشهدوا في يوم عيد الغدير، وأخذوا إلى مؤامهم مع بداية محرم والدموع في ذكرى استشهاد الإمام الحسين^(ع). هذه المعاني تمنح الإنسان سكينه، رغم أن الفقد يبقى ويكبر أحياناً. ما يؤلمني كثيراً أن شهادة العلماء جاءت مع شهادة جيران أرباء، نساء وأطفال وأناس لا ذنب لهم. هذا يكشف خبث العدو. كان أبي يقول في أحد أحاديثه: «حين يكون عدوك هو الكيان الصهيوني، تصبح حياتك حلوة». أي إن خبثه يؤكد أنك في الطريق الصحيح. إذا رأيت اسماك في قائمة الموساد، فهذا يعني أنك كنت تعمل عملاً مؤثراً، وعليك أن تواصل.

هل شعرّت في آخر لقاء أو اتصال أن هذه قد تكون المرة الأخيرة؟

لا، أبداً. نحن، لأننا من جهة أبي سادة، أي «طباطبائيون»، نجب جداً أجمع السادة في عيد الغدير. كنتُ ننتظر أن نلتقي يوم السبت، يوم العيد. حديثي الأخير مع أُمّي كان عن ترتيب الضيافة وأحوال الأطفال. وحديثي مع أبي كان قصيراً جداً، سأل بسرعة عن أحوالنا وأحوال الحديقة والأولاد، ثم أنهى الاتصال. ظننت أنه مشغول الذهن، وقلت لأُمّي: «إني أشعر أن باله منشغل». كنتُ ألتح عليه في مثل هذه الحالات، بل تنتظر حتى تمر المرحلة ويخبرنا هو. لاحقاً سمعت أن من كانوا حوله في العمل قالوا إن الدكتور كان في الأسبوع الأخير قلقاً في كل لحظة، وكانت أكثر مخاوفه على أُمّي، إذ كان يقول ربما يستهدفون مكان العمل أو يحدث شيء في الطريق؛ لكنه لم ينقل إلينا شيئاً من هذا القلق.

بعد شهادة والديك، كان قائد الثورة الشهيد^(ع) إلى جانب عائلتكم بطرق مختلفة. كيف أثر ذلك فيكم؟

بعد شهادة أبي وأُمّي، دُعيْنَا من قبل السيد القائد إلى مجلس ختم لشهداء حرب الأيام الإثني عشر المفروضة. أتذكر أنني في ذلك اليوم كنت في حال مختلف. شعرت بطمأنينة وسكينه عجيبتين. حين دخلنا حسينية الإمام الخميني^(رض)، كان التعامل محترماً ومُعَمِّماً باللطف، وشعرنا أننا مدعوون بشكل خاص. مع دخول قائد الثورة الشهيد^(ع)، شعرت أن الحزن الجالس في

مهندسو إيران القوية

داخلي بسبب فقد أبي وأُمّي قد ذهب فجأة. هناك أطمأنت قلبونا. قلت في نفسي: «إذا كان أبي جندياً للسيد القائد، فدعاء الأبوة منه الآن خلفنا. وقد قال لنا إنه يدعو لنا جميعاً، وكان هذا ثميناً جداً».

بعد مدة تكررت هذه الألطاف، ودُعيْنَا مرة أو مرتين في مناسبات مثل يوم الطالب وأعياد أخرى. شعور الانتماء إلى هذه العائلة الكبيرة كان يمنحني عزاً. هناك فهمت بعمق الفرق بين مكانة الشهيد ومن يرحل رحيلاً عادياً؛ هذا العز هو جبر الهي لعائلات الشهداء. كما وصلتنا رسائل متعددة من السيد القائد. جاء الدكتور حداد عادل حاملاً رسالة منه، وكان ذلك سبباً في سكينتنا. كما جاء الشهيد القائد شيرازي مع زوجته، وكانت جلسة ودية.

ثم أخبرت ذات مرة أن لدينا ضيوفاً مزينين. قيل لنا إن الضيفات من النساء. وبعد يومين فقط استقبلنا ثلاث عزيزات: السيدة بشرى والسيدة هدى، نجلتي قائد الثورة الشهيد، وزينب ابنة السيدة بشرى. كانت جلسة لا تُنسى. تحدثنا ساعة ونصف كأننا نعرف بعضنا منذ سنوات. كان بيننا حديث مشترك كثير، وكانت السيدة هدى تعرف أُمّي من خلال الدكتور مصباح، وكانت قد رأت أُمّي أيضاً. كانت جلسة مفعمة بالراحة.

في مارس/ آذار ٢٠٢٤، وقبل شهادة أبي وأُمّي، تشرفنا بقاء خاص مع قائد الثورة الشهيد^(ع): أنا وأبي وأُمّي وأخي. كانت هيبته وصلابته تملآن عيني إلى درجة أنني لم أستطع الكلام. أمّا أُمّي فتقدمت وطلبت منه أن يدعو لها بحسن العاقبة. وفي النهاية استُشهدوا جميعاً. هنئناهم. أمرتكر في ذهني دائماً: أبي وأُمّي لم يكونا يطبقان أن يصيب قائد الثورة الشهيد^(ع) أذن أُمّي، فكيف بشهادته؟ لذلك أقول إن من السعادة أن بعض أصحابه رحلوا قبله. لو كان أبي وأُمّي موجودين، ربما لم يكونا قادرين على احتمال هذه الأيام الثقيلة.

حين استُشهد السيد القائد، تضاعف المنأ مرات. شعرنا أننا نيتمنا مرة أخرى. يوم جاءت السيدة بشرى، شعرت أنها أخت كبيرى لي؛ لذلك، بعد شهادته، أحسستنا أننا عائلته من جديد. نسأل الله أن يذكرنا جميعاً بالدعاء على مائة أبي عبد الله الحسين^(ع).